

نحو صناعة معرفيّة جديدة في الدّرس اللّغوي العربي
Vers une nouvelle construction de savoir dans les études
de la langue arabe.

أ. عمر برمان[‡]

تاريخ الاستلام: 2018.10.12 تاريخ القبول: 2021.05.23

ملّخص: نحو صناعة معرفيّة جديدة في الدّرس اللّغوي العربي، هي رؤية مبنية حول علاقة اللّغة بمجتمع المعرفة بناء ابستمولوجيا قائما على أنقاض المعرفة العلميّة التي كسرت نموذجها الثّابت النقلة النوعية التي عرفها العالم مطلع الألفية الجديدة حيث ومع بدء الثورة المعلوماتيّة وتناميها خصوصاً في العقود الأخيرة، وصولاً إلى راهن أيّامنا، نلاحظ أن المعرفة العلمية تضاعفت على نحو غير مسبوق مستندة إلى الاختراعات والابتكارات ذات العلاقة بالتكنولوجيا الذكيّة وعلى رأسها الحاسوب أحد أقطاب مجتمع المعرفة. وقد أدت هذه الثورة المعلوماتية الشبكية التشبيكية إلى طفرة علميّة مُعجزة، هزّت أركان البحث العلمي في كل التخصصات، وبدأت تؤسس لبراديغمات جديدة في البحث العلمي، مما جعلنا نجنح إلى تصور رؤية جديدة نحو صناعة معرفية جديدة في الدرس اللغوي العربي تنسجم والتغير الحاصل في المشهد المعرفي العالمي.

[‡] مخبر تعليم -تكوين-تعليمية المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة، الجزائر، البريد الإلكتروني:

omarvisioness@gmail.com (مؤلف مرسل)

كلمات مفتاحية: مجتمع المعرفة، اللغة، التشبيك، صناعة معرفية.

Résumé : “Vers une nouvelle construction de savoir dans les études de la langue arabe”, est une vision qui traite la relation entre la langue et la communauté de savoir sur une base épistémologique, qui remplace la connaissance scientifique Classique qui a ruiné tous ces anciens modèles, faisant de cette révolution sur le traditionnel l’objet d’une nouveauté hors paire au début de ce nouveau millénaire. Inauguré par le boom informatique, qui a stimulé une haute fréquence de production de la Connaissances scientifiques ; et appuyé par les Inventions et les innovations liées aux technologies intelligentes, notamment l’ordinateur qui est le Pierre angulaire de la communauté de connaissance.

Cette révolution technologique de l’informatique et des réseaux a conduit à une percée scientifique miraculeuse, qui a ébranlé les différents domaines scientifiques, et donne naissance a des nouveaux paradigmes de la recherche scientifiques en consistance avec les changements qui ont lieu sur le champ scientifique, ce qui nous a poussé à adopter une nouvelle vision concernant la nouvelle construction de savoir dans les études de la langue arabe.

المقدمة: إن المراقب للنماذج العلمية الجديدة يستطيع التفتن إلى ما باتت تُسجله تباعاً وسراعاً، مراكز بحوث غربية كبرى من إنجازات وفتوحات علمية -ماكان يمكن الوصول إليها في ظل النماذج البحثية القديمة- بفضل الثورة العلمية التي تشهدها الألفية الثالثة، والتي تنمو بشكل انفجاري متعازر، مرة كل خمس سنوات، وأحياناً مرة في كل سنة، وربما نصف السنة أيضاً..

ولعل بنية التفكير الجديدة التي بدأت تترسخ أصولها ومبادئها في كثير من المجالات هي التي تحدونا إلى تتبع سياقات ومساقات هذا النسق المعرفي الجديد الذي يطرح إشكالات ابستمولوجية تتعلق بكثير من قضايا البحث

العلمي، ومنها قضية اللغة ومحاولة تمثل مشهدها المعرفي القائم اليوم وفهمه ببرادينغما* جديدة تتوافق ومعطيات العصر؛ إنه مشهد جديد قائم على دعائم العصر الجديدة المتمثلة في المعلومات وتكنولوجيا المعلومات، كما تثبت ذلك دراسات سابقة، والتي وإن تعدد تعريفها لمصطلح مجتمع المعرفة إلا أننا نجد شبه اتفاق حول الدعائم التي نتج عنها هذا المجتمع وهو ما يهمنا في هذا السياق؛ حيث نجد تقرير المعرفة العربي للعام 2009 يشير إلى "أن تنوع المرادفات يُظهر وجود ثلاثة حدود كبرى متقاطعة في صلب المفهوم، وهي التكنولوجيا والاقتصاد والمجتمع، حيث أصبح أمام تكنولوجيا المعرفة، واقتصاد المعرفة، ومجتمع المعرفة".¹

وورد في التقرير أيضا أن العصر الجديد ويقصد به عصر مجتمع المعرفة يتأسس: "داخل دائرة هذه الأقطاب، بكل ما يحمله من آفاق وآمال، في توسيع دائرة خيارات الإنسان في الحياة. وفي هذا الإطار، لا ينبغي أن لا يغفل أيضا الدلالة الطوباوية التي يحملها المفهوم، فالحديث عن مجتمع المعرفة هو أساسا حديث عن أفق تاريخي مفتوح في طور التشكل".²

وهو ما يؤكد كمال عبد اللطيف بقوله: "يصعب التفكير في المعرفة اليوم من دون العناية بدور المفاهيم الثلاثة في بناء المدركات والمعلومات وشبكاتها في عالمناء، ذلك لأننا نعتبر، في الطور الراهن من أطوار استواء الدلالة وتشبعها في مجتمع المعرفة، أننا أمام مفردات التكنولوجيا والاقتصاد والمجتمع التي ترد غالبا بصورة مرادفة لمجتمع المعرفة، وذلك بإضافة مفردة المعرفة (اقتصاد المعرفة، مجتمع المعرفة، تكنولوجيا المعرفة)، فهذه الثلاثة تصنع الروافع الحاملة لما يمنح مجتمع المعرفة المعنى والدلالة".³

ويضيف قائلا: "نكتشف في مختلف التلوينات التي بلورتها المرادفات الأساس في هذا الباب، أننا أمام ثلاثة حدود كبرى متقاطعة في صلب المفهوم؛ ثلاثة حدود مضافة إلى مفردة المعرفة. ويتعلق الأمر هنا بالتكنولوجيا

والاقتصاد والمجتمع، تكنولوجيا المعرفة، واقتصاد المعرفة، ومجتمع المعرفة. وتحيل الحدود المذكورة إلى الفضاءات التي تأسس ويتأسس انطلاقاً منها العصر الجديد بكل ما يحمله من آفاق وآمال في توسيع دائرة خيارات الإنسان في الحياة، وقبل ذلك في تملُّك ما يسعفه في مواجهة التحديات الجديدة التي تولدت عن الطفرات والثورات المتحققة داخل المجتمع الإنساني.⁴

وتمثلنا لهذا المشهد المعرفي يفاجئنا بمقاربات جديدة لم يألّفها العلم من قبل، تقوم على الربط والتشبيك اللذين يؤديان في غالب الأحيان إلى النقص وإعادة البناء.

إن هذا التبادل العلمي القائم على التشبيك بين العلماء كأفراد وبين العلوم كتخصصات هزّ النماذج العلمية القديمة وبدأ يقيم نموذجاً بحثياً جديداً أدى إلى إظهار مجالات جسورة لم تكن لتولد في كنف البراديغم البحثي القديم.

ولعل هذه الفتوحات المطردة والمتزايدة هي نتاج تمازج العقل العلمي الباحث مع التقنية الجديدة التي أتاحت التشبيك بين العلوم وعدم الفصل بينها وتبادل الخبرات والمعارف والأفكار على نحو غير محدود سرعة ومكاناً، مما دفع بأحد العلماء إلى قول ما ترجمته: "إنّ التقنيّة المتحوّلة ستجعلنا نتبادل الفكر بصورة لم يسبق لها مثيل، لأننا سنتمكّن من التحدّث إلى الناس بأيّ لغة، فعدساتنا اللاّقطة ستكون قادرة على ترجمة أيّ حديث، عبر لغة تقنيّة مُشتركة يتداولها الجميع".⁵

وبما أننا أمام مشهد علمي جديد قائم على أنقاض البراديغم القديم فإننا نلاحظ حتّى الآن، ومنذ نهايات القرن العشرين وبداية القرن الحادي والعشرين أن مفهوم البحث العلمي لا يزال عرضةً للتعديل والبلورة وتحديد الطرائق والمناهج وتجديدها، وكذلك التطبيقات المتعلقة بهذه المناهج، على الرّغم من أنّ المنهج الأداة الأساسيّة والمركزيّة لمعرفة حقائق الكون والإنسان والحياة، وأيضاً على الرّغم من أنّ الحاجة إلى الدراسات والبحوث العلميّة المطّردة، باتت من

عناوين تقدّم الدول الكبرى وإمساكها بمنطلقات التفجّر المعرفي وسياقاته على كلّ صعيد. وأمام هول التحولات الكبرى في العالم على كلّ صعيد، وبخاصّة في السنوات الأخيرة، وربطاً بسياق هذه الدراسة التي وضعت اللغة العربية في وضع التشبيك مع أقطاب مجتمع المعرفة، فإننا نجد أنفسنا مجبرين على تبني رؤية جديدة للبحث في اللغة العربية لخدمة أبنائها في عصر متغير تغيراً ثورياً في كل المجالات. فنحن إذن أمام وضع علمي جديد مليء بالتحولات غير التقليدية في كلّ شيء، تنموياً واقتصادياً ومعرفياً، وبالطبع في مضامير العلوم الإنسانية على اختلافها، يوجب علينا أن نرصد وفي إطار من البحوث العلمية المستندة إلى مناهج متطورة ومُنْتَجة في مجالاتها كل هذه التغيرات ونتعامل معها بمنهج علمي يتسق والمنهج الذي أنتجها في ظروفه وسياقاته وإرهاصاته. والهدف من ذلك كلّهُ تكريس المعرفة العلمية ونشرها، حيث لا تعني هذه الخطوات الرصدية للتغيرات في المشهد العلمي التعامل مع نتائج العلم وكشوفاته العظيمة فقط، وإنما تعني الاندماج فيها والتماهي معها كطرائق تفكير إبداعية مؤسّسة لمعرفة جديدة، هي أسّ التفكير التنموي والنهضوي الحضاريّ الشامل الذي بتنا نرى آثاره ماثلة بين أيدينا.

وتجدر الإشارة هنا إلى منطلقنا في البحث من أطروحة إيمانويل كاستلز⁶ Manuel Castells المكونة من ثلاثة مجلدات والتي صدرت في نهاية القرن الماضي بعنوان: عصر المعلومات؛ وكان عنوان مجلدّها الأول مجتمع الشبكات، وعنوان الثاني قوة الهوية، وعنوان الثالث نهاية الألفية والتحولات الجيوسياسية العالمية والفاعلين الجدد، والملاحظ على هذه الأطروحة أنها مفعمة بالكثير من الجرأة والقوة والإبداع. ويمكن القول إنّنا نقف في هذه الأطروحة على كثير من الجوانب المكونة لعصرنا الذي نحياه مما يجعلنا ننكئ عليها في فهم عصرنا بمرافقة مراجع أخرى تناقلت محتوى هذه الأطروحة تحليلاً وتوضيحاً.

وقد عرّف كاستلنز الشبكة بأنها: "البنية الاجتماعية الجديدة لعصر المعلومات، عصر المجتمع الشبكي المؤلف من شبكات الإنتاج والقوة والتجربة حيث تقوم هذه الشبكات بدورها في بناء ثقافة افتراضية في إطار التدفقات المعولمة، متجاوزة بذلك مفهومي الزمان والمكان... وقد حصل في عصرنا هذا اختراق جميع المجتمعات بالفعل الجارف للمجتمع الشبكي".⁷

وإذا ما أردنا فهم عمل الشبكات باعتبارها نمطا تقنيا ناتجا عن شبكات الدماغ التي أعادت إنتاج نمط عمل هذا الأخير مرة أخرى، فإنه يجب علينا فهم مكوناتها الأساسية؛ يقول دارن بارني شارحا عناصر الشبكات: " تتألف الشبكات من ثلاثة عناصر رئيسة: العُقد والروابط والتدفقات. والعقدة هي نقطة محددة موصولة بنقطة أخرى على الأقل، مع أنها، كثيرا ما تكون نقطة ربط بين نقطتين أخريتين أو أكثر. أما الرابط فيصل عقدة بأخرى. والدّفق هو ما يمرّ بين العُقد ومن خلالها على طول الروابط. ومثال ذلك أن نعدّ مجموعة أصدقاء شبكة، يمثل فيها كل صديق عُقدة موصولة بصديق آخر على الأقل لكنها موصولة عادةً بآخرين كثر هم كذلك مترابطون على نحو مستقل أو عبر طرف آخر. والاتصال المنتظم بين هؤلاء الأصدقاء، إما بالكلام وإما عبر نشاط آخر، وسواء أكان مباشرا أم بوساطة تقانة ما، هو الرابط الذي يصل بينهم، وما يمر بينهم من ثروة وصداقة حميمة وتأييد وحب وعون هو الدفق".⁸

والذي يهمننا من بين كل عناصر الشبكة هو ذلك الدّفق اللامتناهي من سيل المعلومات عبر تقانة الألياف البصرية العابرة للقارات.

وذلك الدّفق هو ما يصنع عالمنا اليوم؛ أي يصنع العقل المؤسّس لكل عمليات التفكير لمستخدمي الشبكة، ويصنع الثقافة التشاركية التشبيكية للمعلومات ودفعها؛ يقول كاستلنز متحدّثا عن روح المعلوماتية بوصفها الشيفرة الثقافية المشتركة التي تجمع معا الشبكات المختلفة التي تشكل معا المجتمعات

المعاصرة: "إنها مؤلفة من ثقافات كثيرة، وقيم كثيرة، ومشاريع كثيرة تتقاطع في عقول مشاركي الشبكات المختلفين وتملي استراتيجياتهم، متغيرة بسرعة تغيرهم ومتبعة ما يطرأ على وحدات الشبكة من تحولات تنظيمية وثقافية."⁹

و هنا بالذات يظهر مفعول التقانة أو التكنولوجيا كدعامة أساسية مؤسّسة للعقل الشبكي من خلال ما تتيحه من سهولة التوصيل بين العقد على حد تعبير كاستلز، وعلى هذا الأساس يمكن الاعتماد على ظاهرة وصل العقد ببعضها كسمة أساسية للعصر الذي نحياه، حيث يقول كمال عبد اللطيف في هذا السياق: "إن قوة مفهوم المجتمع الشبكي يصنعها البعد التكنولوجي وتصنعها القدرة على الاتصال والتواصل في جميع الأوقات ومن دون رقيب وهو الأمر الموصول بالمجتمع."¹⁰، ولا شك أن الشبكة كلها مبنية على تقنية الربط والتشعب -سواء بالتشعب النصي النواة الأولى لظهور التشبيك والانتقال من حقل إلى آخر، أو أي تقنية أخرى أكثر تقدما- مما يجعل تقنياتها باستخدامنا المتواصل لها تنعكس على طرق تفكيرنا كما أشار إليه الكثير من الباحثين، حيث يقول فرانك كيلش في كتابه (ثورة الانفوميديا): "ويستشعر الناس قدرات التكنولوجيا الجديدة، وهم يدركون تماما أن الكمبيوترات الأصغر حجما والأكثر سرعة، والمرتبطة بطريق المعلومات فائق السرعة المتخيم بالمعلومات سيكون لها تأثير عميق في أساليب عملنا وحياتنا نفسها."¹¹، وهو ما توصل إليه تقرير "من مجتمع المعلومات إلى مجتمع المعرفة" حيث ورد فيه أن التكنولوجيا الرقمية الجديدة: "تؤثر بصورة مباشرة على سرعة نقل المعارف ولكن أيضا، وبخاصة، على معالجة المعارف وتلقيها. إذ لا يمكن منذ الآن التفكير في عمل معرفي تبعا لنموذج نظريات المعرفة الكلاسيكية، التي تنتظر إليه باعتباره فعلا نفسيا فرديا. فعلى الرغم من أن اللجوء إلى معالجة النصوص الكترونيا أو استعمال محركات البحث عادات قريبة العهد، إلا أنها ترسخت

بعمق في العادات وفي اللغة المتداولة إلى درجة أن النشاطات المعرفية تشابه أكثر فأكثر عمليات تجري بمساعدة الحاسوب.¹²

إنه فعلاً عصر الرّبط كما يقول سعيد يقطين: "إن التنظيم والتيسير والتسريع كل ذلك شديد الصلة بالنص المترابط الذي كان الحلم الأول، وحفز على العمل من أجل تحقيقه بجعل الثورة تتم على مستوى تحصيل المعارف والمعلومات وجعلها متاحة للجميع باعتماد مقولة واحدة هي "الرّبط" بين الأشياء. لذلك لا غرو نجد هذه المقولة تجعل عصرنا -وهذا ما يميزه عن كل العصور الماضية- عصر الوصل بين الأشياء: الاتصال والتواصل. وكان الفضاء الشبكي الانترنت أكبر تجسيد للترابط والتواصل بين الناس والعوالم والمعارف. فكان بذلك أن وضع البشرية أمام حقبة إنسانية ومعرفية جديدة.¹³

وهذه الحقبة الإنسانية المعرفية الجديدة هي التي تحدوني إلى تمثّل عصرنا الذي نحياه بكل ما فيه من تغيرات جذرية مسّت بنية التفكير وآلياته، ولعل من بينها ما لمسناه بوضوح من تغير التفكير النمطي المتكئ إلى الماضي نحو تفكير علائقي ترابطي تشابكي متجدد بتجدد الدّفق المعلوماتي وتزايد الرّبط الذي يعمل على نسق التفكير التكنولوجي الحوسبي ويحاول مجارته رغم بُعد المسافة بينهما كما يوضح ذلك كمال عبد اللطيف بقوله: "ففي عصرنا الموصوف بعصر التكنولوجيا بامتياز، تستحوذ المعلومات والمعارف على الأذهان والسلوكيات، بصورة تجعل ملاحظتها أمراً متشعباً"¹⁴، أي أن ملاحظة المعارف المتجددة نتيجة الرّبط المتواصل ونتيجة الزخم المعرفي الهادر عبر الألياف البصرية جعل العقل البشري يجاري في معالجته للمعلومات النسق الحوسبي والتكنولوجي، ولعل أهم ميزات ذلك النسق التفكير الشبكي الذي رافق ظهور ما يسمى بمجتمع المعرفة كما يقول كمال عبد اللطيف مرة أخرى: "عبارة المجتمع الشبكي هي من المرادفات القوية لمفهوم مجتمع المعرفة. وقد

ولّد هذا المفهوم الأخير بدوره مترادفات أخرى ذات صلة بالقطب الذي ينفّث عليه، ويستمد منه بعض مقوماته.¹⁵

فنحن إذن أما حال معرفية جديدة تحوّلت فيها أنظمة المعرفة وبنية التفكير جذريا انطلاقا من مقولة العقل يصنع المعرفة وتصنعه المعرفة، وباتت صناعة المعرفة دعامة الاقتصاد الجديد وسمّة العصر الغالبة، فهل يمكن سحب هذه التغيرات على درسنا اللغوي العربي؟

إن النموذج البحثي الاسترشادي القائم على التشبيك والدراسات البينية القاضي بفتح العلوم على بعضها وعدم الإيغال في التخصص القائل للتخصص في حد ذاته، هو نفسه المنهج الذي سيدفع بنا إلى بناء رؤى وتصورات نابغة من إيماننا بميلاد براديغم علمي جديد يحكم العالم قائم على النقض والبناء من جديد في كثير من الأحيان.

إن الرؤية العامة التي نتبناها هنا، هي أننا أمام ثورة في منهجية البحث العلمي يجب أن نستثمرها بكل شجاعة ونتجه بكل جرأة نحو صناعة معرفية جديدة في الدرس اللغوي العربي لإعادة بناء البراديغم العلمي على أنقاض النموذج العلمي السائد الذي بدأ يتداعى شيئا فشيئا، تحت وطأة الزخم المعرفي الهادر واللامتوقف، الذي انجر عنه تشبيك جديد بين المعارف و البنى المعرفية في حدّ ذاتها مما أدى إلى تداعٍ للنماذج الاسترشادية التقليدية وهذا ما أشار إليه صراحة تقرير المعرفة العربي لعام 2009 : " تضعنا نتائج الثورة المذكورة أمام كثافة عالية في الإنتاج، كما تضعنا أمام عمليات تقويض متواصلة للعلاقات المتوارثة عن الثورة الصناعية الأولى والثانية، إلا أنها في الوقت نفسه، تجعلنا أمام حالات متواصلة من التوتر واللايقين، فكل ما هو صلب يتبخر في الهواء والأفكار والاكتشافات العلمية الجديدة تصبح قديمة قبل نضوجها.¹⁶

ولعل أولى إفرازات الزخم المعرفي الناتج عن التشبيك والوصل والربط والدفق هي الإطاحة بالنماذج الاسترشادية العلمية السائدة، حيث يقول أحمد يوسف: "

بعد الثورة التي شهدتها العالم في مجال الاتصال و المعلومات ازدادت التقنيات في التطور المتسارع، فقد ساعدت تطبيقات المعرفة العلمية على توفير مجالات كبيرة للاختيار و دوائر واسعة للفعل دون أن تكون ثمة قيود مكبلة للحركة، بل يكون فيه الاختيار و الفعل على درجة كبيرة من الاستقلال. إن هذا الاستقلال يعد سمة من سمات الثقافة الرقمية التي سعت إلى إزاحة كثير من الإكراهات التي كانت تخلق حالات من الانزعاج النفسي يصل في بعض الأحيان إلى درجة المرض.¹⁷

ونحن في هذا البحث -وفي سياق حديثنا عن مدى إمكانية سحب التغيرات الحاصلة في عالم اليوم على درسنا اللغوي العربي- نجد أنفسنا مرغمين على ربط اللغة بـ مجتمع المعرفة ربطاً لا مناص منه يعتبر مجتمع المعرفة بنية تفكيرية متقدمة، ويعتبر اللغة عاملاً رئيساً في تشكيل تلك البنية، وهو ما أشار إليه (بيار أشار) حين تحدث عن علاقة اللغة ببنية التفكير لدى الفرد قائلاً: "اللغة ظاهرة اجتماعية ترتبط بناها ارتباطاً وثيقاً ببنى الفكر السائدة في مجتمع لغوي معين، و هو ما يؤكد افتراض العلاقة الطردية بين التخلف في مجال اللّغة والتخلف الحضاري".¹⁸، فاللغة بما هي الوسيط المحايث لكل ما يتناقله الناس من معان فإن ما ينتج عنها من آثار سواء كانت مادية أم معنوية يوصف من بعد ذلك -باللغة ذاتها- بالتخلف أو الحضارة، فلغتنا حياتنا، وجودة هذه الحياة متعلقة بما ننتجه من معان وفهوم حولها وضمنها عبر وسيط اللغة كيف لا وبناء الكون متزامن مع تكون اللغة كما يصف ذلك سعيد بنكراد: "إن بناء الكون ذاته يتزامن مع تشكل اللغة، فهذه تقود إلى ذاك ضمن ضرورة مطلقة لا يمكن استبدالها بضرورة أخرى. ولا شيء يمكن أن يستقيم خارج اللغة، وخارج إرادتها في تصريف الفكر والانفعالات وفق ما يتوفر لديها من مفاهيم ومصطلحات".¹⁹

وما دام الأمر كذلك؛ أي أن اللغة هي الوعاء الحاضن لأفعالنا، فإنه بات من الواجب علينا إعادة النظر فيما نقوله، لأن ما نقوله بكل بساطة هو ما نتصوره، وما نتصوره هو نسق من أنساق التفكير باللغة كما يقول الفيلسوف (لايكوف وجونسون): "إن نسقنا التصوري ليس من الأشياء التي نعيها بشكل عادٍ، إنما في جل التفاصيل التي نسلكها في حياتنا اليومية، نفكر ونتحرك بطريقة أقل أو أكثر آلية وذلك تبعاً لمسارات سلوكية ليس من السهل القبض عليها. وتشكل اللغة إحدى الطرق الموصلة إلى اكتشافها. وبما أن التواصل مؤسس على أسس نفس النسق التصوري الذي نستعمله في تفكيرنا وفي أنشطتنا، فإن اللغة تعد مصدراً مهماً للبرهنة على الكيفية التي يشتغل بها هذا النسق".²⁰ وعلى هذا الأساس فإن مراقبة اللغة وصنيعها هو الذي حدا بي إلى البحث في علاقتها بتفكيرنا الذي هو مادة إبداعنا وابتكارنا، وإلى دعوة تجديد اللغة التي نتعامل بها أي توليد اللغة من اللغة لإعادة بناء واقع جديد مليء بالإبداع والابتكار، الكلمات مادته الخام والأساس، لشق الطريق نحو الريادة؛ ذاك الطريق نحو مجتمع المعرفة. وتجدر الإشارة هنا بتقرير لجنة تحديث تعليم اللغة العربية الموسوم بـ "العربية لغة حياة"²¹ الذي اشتغل واضعوه على بعث الوظائف الأدائية للغة العربية من إقناع وحجاج وتفسير وإصدار أحكام التي ترتبط ارتباطاً متيناً بمهارات التفكير العليا التي بها نشق طريقنا نحو الابتكار والإبداع والريادة المهارات الأساسية للانخراط في مجتمع المعرفة. لذلك سأجرح بما للكلمة من معنى عن درسنا ذلك الذي تجاهل تلك الوظائف الأدائية، مستأنساً بالاقتباس الآتي: "واليوم، تغيّر سياق التطبيق تغيراً شاملاً. أولاً لأننا في مرحلة سيطرة وضعية من الطراز الطبيعي، إذ أن التداخل بين مجال علوم الأعصاب التي تشهد نجاحاً ملموساً، والمجموعة الغامضة لعلوم الإدراك (sciences cognitives)، قد أدّى إلى برمجة جديدة لمجالات العلوم. وثانياً، لأن البنية الديموغرافية للعلم المعاصر تفرض على الجيل أن يتغير تغيراً سريعاً

لا يسمح له بإعادة توليد المعرفة. فهناك عددٌ كبير من الباحثين الذين يطرقون باب علوم اللغة بعد تكوين أنفسهم في الهندسة، وهم يجهلون كل شيء عن التكوين البطيء الذي أدّى إلى نتائج اللسانيات المقارنة، ويجهلون بالتالي كلّ شيء عن القيم الاستمولوجية الضمنية التي تناقلها خلال هذا التكوين. وهذا لا يعني بالضرورة أنّ كارثة عامّة قد وقعت، فالإبداع يقوم بعض الأحيان على النسيان.²² وعلى خُطى هذا النسيان الإبداعي لذلك الدرس اللغوي التقليدي فإننا ندعو إلى **براديغم/Paradigme**²³ جديد؛ أي إلى نموذج بحثي استرشادي جديد يبحث عن أثر نسقنا اللغوي على نسقنا المعرفي في حياتنا نموذج بحثي استرشادي بنسق تشبيكي ناتج عن تأثر بلغة التقانة لغة عصر المعرفة، الذي جعل معظم أوقاتنا في تفاعل تقاني لا يكاد ينقطع.

وإنه من موجبات عدم التناقض مع واقعنا، أن نسمح لعقولنا أن تفكر بطريقة تلقّيا للمعارف اليوم، وسنجد انزياحا ملاحظا في التفكير بـبراديغما جديدة لفهم عالم اليوم. وهو ما بدأنا نلاحظ في الآونة الأخيرة ميلاد مختبرات بحثية جديدة تبحث في مسائل لغوية من منظار علماء الأعصاب، وعلماء النفس بكل تخصصاته ومن علماء الفيزياء، ومن علماء التربية والتعليم، ومن التقنيين والمبرمجين ليلتقوا على صعيد واحد، على عكس ما كنا نراه من استئثار وجمود. كما بتنا نرى كل يوم ملتقيات تطرق مواضيع جريئة حول اللغة العربية تدعو المسهمين من كل حذب وصوب على اختلاف تخصصاتهم للإسهام فيها؛ على غرار البحث في لغات التّخصص، وعلى غرار ملتقيات تجعل من اللّغة مدخلا لكل شيء، والأمثلة في هذا الباب كثيرة²⁴.

ويمكن إثبات هذه الرؤية بميلاد مجلة "سياقات"؛ حيث أصدرت مؤسسة (Natural Sciences Publishing) الدولية، مؤخرا، مجلة "سياقات اللّغة والدراسات البينية"، والتي تعد أول مجلة علمية دولية مُحكمة في مجال دراسات اللغة العربية وآدابها.

تتناول مجلة "سياقات" اللغة برؤية منفتحة على الدراسات البينية في حقول الإنسانيات، وتتشكل هيئة تحريرها من مجموعة من كبار أساتذة اللغة العربية²⁵ على رأسهم الدكتور محمد بلبع مدير تحرير المجلة ولها هيئة استشارية موسعة مكونة من باحثين من مختلف الجامعات العربية²⁶، ويقول محمد بلبع متحدثاً عنها أنها تتطلق من رؤية شاملة للحراك المعرفي تتخطي العزلة المعرفية والمنهجية، ويفتح إلى تجاوز أحادية مصدر المعرفة، ويتجاوز وثنية المنهج بقراءة الظواهر وفق رؤية منهجية طيبة لما تُمليه هذه الظواهر.

وأوضح أن فريق العمل يسعى إلى أن تكون مجلة «سياقات» المتخصصة في الدراسات اللغوية هي المنفذ الأهم الذي تطل منه دراسة البينيات، وأن تكون اللغة هي المركز الذي تدور حوله كل الدراسات البينية، لذلك تستقبل المجلة كل الدراسات العلمية التي تضع اللغة في بؤرة اهتمامها سواء في حقل اللغات المقارنة أو علم اجتماع الأدب أم علم النفس اللغوي أم الأنثروبولوجية اللغوية أم السرديات التاريخية أم غيرها مما يمكن أن يلقي أضواء على تلاحقات اللغة والحقول المعرفية. إن هذه المجلة وتلك الملتقيات بمثابة أدلة على تشكل الوعي العربي بميلاد براديجم معرفي جديد يجب أن يرافق البحث في الدرس اللغوي العربي. إنها فعلاً ثورة منظوماتية توجب على الباحث العربي رصد الواقع العلمي رصداً دقيقاً، وخصوصاً لجهة مواءمته للتوجهات العلمية العالمية في الدول المتطورة، ومن منطلق إسهامه في دعم مرتكزات التنمية العربية وتفعيلها في مجالات تكنولوجيا المعلومات والاتصالات، وسائر علاقات الأداء العلمي العام بكل المستويات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية، مما يستدعي إعادة بناء العقل المؤسس للبحث العلمي على غير ما هو سائد في الجامعات العربية، وذلك بفهم جديد لمناهج البحث العلمي وشرحها وعلاقتها بالتطور السياسي والفكري والمعرفي، وخصوصاً على صعيد العلوم الإنسانية والاستثمار في مجالاتها التي لا تعرف الركود والجمود عن طريق التشبيك

والدراسات البيئية اللامتناهية الولادة لفروع العلم والمعرفة وللمنجزات العلمية التي باتت جزءاً من التحوّلات الاستراتيجية الجارية في العالم الآن، ومن له قدر أدنى من الحصافة وبعد النظر يستطيع الجزم بلا شك أن هذه التحوّلات سيكون لها علاقة بمصائر بلداننا ومجتمعاتنا.

إننا أمام ثقافة علمية جديدة أفرزها العصر بكل ركائزه وأقطابه، هذه الثقافة العلمية الجديدة أو هذا المشهد المعرفي الجديد هو قاعدة الانطلاق الجذريّة التي يحتاج إليها العرب لبناء نهضتهم الحضاريّة الجديدة التي يطلق عليها اصطلاحاً مجتمع المعرفة.

وإنه لمن الجدير بالذكر أن هذا المشهد المعرفي الجديد ذو طبيعة اقتحاميّة، أي أنّ لديه القدرة على اجتياح المجتمعات كافّة دونما استئذان، نظراً لما يوفّره من سلع وخدمات وابتكارات واكتشافات تطبع العصر بطابعها الاستثنائيّ والمفتوح على المزيد من المفاجآت المدهشة التي يطالعنا بها الخيال العلمي من جهة فيصدقها الواقع من جهة أخرى.

إننا أمام حركة علمية تقنية ثورية، بدأت تدفع المجتمعات إلى التحول القهري من نماذج معرفية قديمة إلى نموذج معرفي جديد على ضوئه يتم التآهل للانخراط في مجتمع المعرفة.

هذا النموذج المعرفي الجديد هو الذي نعتبره رؤية يجب على الباحثين في اللّغة العربية وما جاورها من علوم أن يتطلّعوا إليها، ويجب علينا بصفتنا باحثين أن تدفعنا هذه الرؤية إلى إعادة النظر في أبجديات الدرس اللغوي العربي، و تثوير منهجية البحث فيه والدفع به إلى صناعة معرفية جديدة تتسق والدفق المعرفي السائد القائم على التشبيك بين العلوم وفتح الدراسات البيئية بينها، أملاً أن يتولد من هذه الرؤية مشهد معرفي عربي جديد يعود بالفائدة على اللغة العربية وهي على تماس مع أقطاب المجتمع الجديد الذي تشكل أو يكاد ألا وهو مجتمع المعرفة.

الهوامش:

* يُنظر آلان تورين، براديجما جديدة لفهم عالم اليوم، ترجمة جورج سليمان، المنظمة العربية للترجمة، لبنان، الطبعة الأولى 2011، ص 13. يتصور توماس كون أن العلم في فترة من الفترات يحقق ارتباطا كليا بين نظرياته المختلفة؛ بمعنى أن هذه النظريات تُولف كلاً متماسكا، هو ما يطلق عليه النموذج، ويعملون من خلاله، إلا أنه يحدث أثناء وجود هذا النموذج والتزام العلماء به أن يأتي أحد العلماء ويضع يديه بطريقة أو بأخرى، على كشف علمي هام يخالف الآراء السائدة في النموذج العلمي المعمول به فعلا، فتتغير نظريات العلماء المعمول بها في ظل النموذج السائد لتحل مكانها نظريات جديدة، ترتبت على الكشف الجديد، ويبدأ العلم مسيرة أخرى وفق أفكار وآراء جديدة من خلال نموذج جديد مخالف تماما للنموذج العلمي المألوف. يُنظر توماس كون، بنية الثورات العلمية، ترجمة شوقي جلال، عالم المعرفة المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1992 الكتاب 168.

¹ تقرير المعرفة العربي لعام 2009، ص 28.29.

² تقرير المعرفة العربي لعام 2009، ص 29.

³ كمال عبد اللطيف، المعرفي الإيديولوجي الشبكي تقاطعات ورهانات، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، الطبعة الأولى 2012، ص 08.

⁴ كمال عبد اللطيف، المعرفي الإيديولوجي الشبكي تقاطعات ورهانات، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، الطبعة الأولى 2012، ص 23.

⁵ <http://ofoq.arabthought.org/?p=3696> أحمد فرحات نشرة أفق العدد

⁶ Manuel Castells; L'erde l'information, 3 vols. paris: Fariad; 1998

⁷ Manuel Castells; L'erde l'information, 3 vols. paris: Fariad; 1998. p. 54.

⁸ دارن بارني، المجتمع الشبكي، ترجمة أنور الجمعاوي، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، الطبعة الأولى 2015، ص 39.

⁹ Manuel Castells; L'erde l'information, 3 vols. paris: Fariad; 1998. p. 199.

¹⁰ كمال عبد اللطيف، المعرفي الإيديولوجي الشبكي تقاطعات ورهانات، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، الطبعة الأولى 2012، ص 30.

- ¹¹ فرانك فيلش، ثورة الانفوميديا، سلسلة عالم المعرفة، ص 07.
- ¹² تقرير اليونسكو، من مجتمع المعلومات إلى مجتمعات المعرفة، 2005، ص 53.
- ¹³ سعيد يقطين، النص المترابط ومستقبل الثقافة العربية نحو كتابة عربية رقميّة، المركز الثقافي العربي، المغرب، الطبعة الأولى 2008، ص 208/207.
- ¹⁴ كمال عبد اللطيف، المعرفي الإيديولوجي الشبكي تقاطعات ورهانات، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، الطبعة الأولى 2012، ص 31.
- ¹⁵ كمال عبد اللطيف، المعرفي الإيديولوجي الشبكي تقاطعات ورهانات، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، الطبعة الأولى 2012، ص 30.
- ¹⁶ تقرير المعرفة العربي لعام 2009، ص 45.
- ¹⁷ أحمد يوسف، علامات فارقة في الفلسفة واللغة والأدب، منشورات الاختلاف الجزائر الطبعة الأولى 2013، ص 106.
- ¹⁸ نقلا عن محمد محمد يونس علي، قضايا في اللغة واللسانيات وتحليل الخطاب، دار الكتاب الجديد المتحدة، لبنان، الطبعة الأولى 2013، ص؟
- ¹⁹ سعيد بنكراد، وهج المعاني. سيميائيات الأنساق الثقافية، المركز الثقافي العربي، المغرب الطبعة الأولى 2013، ص 209.
- ²⁰ لايكوف وجونسون، نقلاً عن اللغة دفاتر فلسفية، نصوص مختارة إعداد وترجمة محمد سبيلا و عبد السلام بنعبد العالي دار توبقال للنشر. ص 86
- ²¹ تقرير "لجنة تحديث تعليم اللغة العربية" بمبادرة من صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم، يرجى الاطلاع على الموقع: www.arabicforlife.ae
- ²² نقلا عن جوزيف وكارولين ميسينجر، كلمات تقتل بها أولادنا لا تقولوها أبداً، شركة دار الفراشة للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان، الطبعة الأولى 2008، ص 04.
- ²³ يتصور توماس كون أن العلم في فترة من الفترات يحقق ارتباطا كليا بين نظرياته المختلفة؛ بمعنى أن هذه النظريات تؤلف كلاً متماسكاً، هو ما يطلق عليه النموذج، ويعملون من خلاله، إلا أنه يحدث أثناء وجود هذا النموذج والتزام العلماء به أن يأتي أحد العلماء ويضع يديه بطريقة أو بأخرى، على كشف علمي هام يخالف الآراء السائدة في النموذج العلمي المعمول به فعلاً، فتتغير نظريات العلماء المعمول بها في ظل النموذج السائد لتحل مكانها نظريات جديدة، ترتب على الكشف الجديد، ويبدأ العلم مسيرة أخرى وفق أفكار وآراء

جديدة من خلال نموذج جديد مخالف تماما للنموذج العلمي المؤلف. يُنظر توماس كون،
بنية الثورات العلمية، ترجمة شوقي جلال، عالم المعرفة المجلس الوطني للثقافة والفنون
والآداب، الكويت، 1992، الكتاب 168.

²⁴ إدراج جميع الملتقيات العلمية التي تبنت النهج التشبيكي.

²⁵ تتشكل هيئة تحرير مجلة سياقات من مجموعة من كبار أساتذة اللغة العربية: د. سعد
مصلوح أستاذ علم اللغة بكلية الآداب جامعة الكويت، و د. عيد بلبع أستاذ البلاغة والنقد
ورائد الدراسات التداولية وعميد كلية الآداب جامعة المنوفية سابقاً، و د. نعمان أبو قرّة أستاذ
اللسانيات بجامعة أمّ القري، و د. محمد مصطفى أبو شوارب رئيس قسم اللغة العربية بتربية
الإسكندرية، وأستاذ النقد والأدب ومستشار معجم البابطين، و د. معجب العدوانى أستاذ النقد
بجامعة الملك سعود، و د. حيدر غضبان الجبور، أستاذ اللسانيات المساعد بجامعة بابل، و
د. مصطفى بيومي عضو المجلس الأعلى للثقافة، و د. محمود عسران مستشار مصر
الثقافي السابق بدولة جورجيا، ومدرس الأدب العربي والنقد بجامعة دمنهور.

²⁶ الهيئة الاستشارية للمجلة تضم نخبة من أكبر الأساتذة المتخصصين في أرجاء الوطن
العربي مثل، د. جابر عصفور وزير الثقافة المصري الأسبق، و د. شاكّر عبد الحميد وزير
الثقافة المصري الأسبق، و د. عبد الله التطاوي مستشار رئيس جامعة القاهرة للشؤون
الثقافية ومقرر اللجنة العلمية الدائمة لترقية الأساتذة والمستشار الثقافي السابق لمصر في
المملكة العربية السعودية وليبيا والمدير السابق لمركز جامعة القاهرة للغة العربية والثقافة،
كما تضم الهيئة د. أمنة بلعلي من الجزائر، و د. إبراهيم تاكات من المغرب، و د. جمال بو
طيب من المغرب، و د. حسن يوسف مدير مركز البحوث والدراسات الأندونيسية بجامعة
قناة السويس من مصر، و د. حسن خطاب من مصر، و د. حسن السعدي من مصر، و
د. خولة الإبراهيمي من الجزائر، و د. سعيد المرهج من العراق، و د. شعيب حليفي من
المغرب، و د. صالح الزهراني من السعودية، و د. عبدالحميد النوري من تونس، والدكتور
مؤيد آل صوينت من لبنان، ود. يوسف محمد اسكندر من العراق.